في الاجتماع اللغوي

اللهجات المحلية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تقضي القوانين الخاضع لها تطور اللغات أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص. وقد جرت العادة أن يطلق على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية Dialectes locaux وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التي يشغلها كل منها: فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة؛ ومنها ما تضيق منطقته فلا يشمل إلا بضع قرى متقاربة؛ ومنها ما يكون وسطاً بين هذا وذاك. وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري والسياسي. فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديريتين أو أكثر؛ وقد يجتمع في مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية. ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها، فلا تدخر وسعاً في محاربة عوامل الابتداع والتغيير في داخل منطقتها، ولا تألو جهداً في درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات. فاللغة نظام اجتماعي، وكل نظام اجتماعي يحمل في طيه قوة المقاومة والقهر، على حد تعبير العلامة دوركايم Durkheim

أما محاربة عوامل الابتداع في داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التي تربط المناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم بمثلهم ومجتمعهم. وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعي، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية، ويعظم نفوذها، ويشتد بطشها بالمبتدعين. فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوي تلقى في مجتمع كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها في مهدها. وبذلك تتقي اللهجة ما عسى أن يوجه إليها في داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بمجاوريهم، وقلة فرص احتكاكهم بهم، وما يبدونه في العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال. ويظهر هذا على الأخص في البيئات الزراعية التي تقل فيها وسائل المواصلات، وتضعف حركة انتقال الأفراد، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون في معزل عن سكان المناطق الأخرى. حقاً إن تزوج بعض الرجال في هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه. ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها وانتماءهم في الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة، ودخولهم البلد فرادى وفي أزمنة متباعدة، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته، وما يبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً، كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب، بل من شأنه كذلك أن يحملهم هم على محاكاة لسان المنطقة التي يقيمون فيها. وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التي يكثر

أحمد أمين يمثل صورة الرجل المسئول، والرجل المسئول مسكين مسكين، هو مسئول أمام أهله وأبنائه وأصدقائه وأعدائه، وهو مسئول أمام تلاميذه بكلية الآداب، وقد كففت عنه قلمي منذ اليوم الذي عُيِّن فيه عميداً لكلية الآداب، لأن النقض من عميد تلك الكلية خروج على ما لها في عنق من عهود ومواثيق

ومعنى ذلك أنني أحب أن يقرأ طلبة السنة التوجيهية كتاب « فيض الخاطر » بتدبر وإمعان، لأنه حقاً وصدقاً كتاب نفيس، ولأنه صورة لرجل كريم لم يأخذ عليه خصومه غير هنوات لا تنقص من أقدار الرجال، ومن الدليل على كمال الرجولة أن يكون فيها ما يعاب، لأن الرجولة الحق مزاج من الرشد والغي والهدى والضلال

ثم ماذا؟ ثم أنتقل إلى كتاب « وحي الرسالة » يمثل هذا الأسلوب من الصدق في تشريح أغراض المؤلفين، وأنا أرجو أن يُقبل طلبة السنة التوجيهية على هذه المؤلفات بشغف وشوق، ليكونوا برعاية الله أنصاراً أوفياء للأدب الحديث.

زكي مبارك

فى العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل فى حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وانتمائهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى البلد فى شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام

غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشتبك اللهجتان فى صراع أهلى لا يختلف كثيراً فى مظاهره وطرقه عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى عالجناه فى مقالات سابقة فى الرسالة[1]

وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ . وأحياناً تكون إحداهما عرضة للتأثر بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة . وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال : فأحياناً يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ، وأحياناً يكون عميقاً ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى بلهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو فى تأثرها بلهجة البلد الذى يتخذ مقراً لنقطة البوليس أو للعمدة أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى ... وهلم جرا . ففى هذه الحالات وما إليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية ... وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصرى قد تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها ... ، ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات ، وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجاتها القاف العربية (جافا) أى جيما غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مثلاً مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها القاف العربية همزة: ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيراً من مفرداتها ، ودلالاتها وأساليبها؛ ولكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم إلا فى الكلمات التى تقتبسها منها

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحى السابق ذكرها ، فإن التأثر يكون عميقاً لدرجة تصل أحياناً إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا فى حالتين :

الحالة الأولى : أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى ، ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة ألا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآداباً . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث . فلهجة باريس حيث كان مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى، ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ، ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قريش قبيل الإسلام مع اللهجات المضرية الأخرى ... وهلم جرا ...

الحالة الثانية : أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى فى ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها ، ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . وقد أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين[1] . وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما[2] ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع

وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الأسبانية الأخرى ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات ، ولهذا السبب نفسه

(١) أنظر أعداد ٣٤٧ و ٣٤٩ و ٣٥١

(١) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها (٢) على أن روما لم تكن مهد الايطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها